محمد الشركي

العشاء السفلي

مكتبة الأدب المغربي

رواية

دار توبقال للنشر

مكتبة الأدب المغربي

العشاء السفلي

تمَّ نشرُ هذا الكِتاب ضِمْن سِلسِلة
نصوص أدبية

الطبعة الأولى 1987
جميع الحقوق محفوظة

رقم الإيداع القانوني : 1987/130

هذا ليل النص، يمتحن فيه الجسد الغياب، لعله الموت، لعله نزيف سيدة جليلة لم تُوَرِّثني خطاطة وجهها وهي على فراش الموت. بوركتِ أيتها السيدة الميتة قبل أوان الموت.

محمد بنيس

«حداثة السؤال» ص. 50

مكتبة الأدب المغربي

وجـــــه ميـــزار

مكتبة الأدب المغربي

أَمرٌ كـــان، وأمر يكـون، وأمر لا يكـــون أبـــداً. فـــأمر كـــان.. محبتي لـــكَ، وأمرٌ يكون.. تراني، وأمرٌ لا يكـون.. لا تعرفني معرفة أبداً.

النفري

مكتبة الأدب المغربي

أمر كان، وأبداً يعود.

لنتركِ الأبراج المرصعة بأملاح الشمس الغائبة، والقباب المضرجة بالطحلب الغسقي، ولننحدر نحوكِ، أنتِ الطالعة في ليلنا.

ميزار،

ذكراك تُزَوْبِعُ الجسد وتخطف الفكر إلى إقليم حتمي.

ذكراك : نهر أورفيوسي أرقد في قرارته وأمضغ أعشابه المخصبة والسامة إلى حدود الهذيان.

أعرف الآن، في ليلة القطب هذه، أن ليلتكِ المَدَارية قد انتهت، وأنه لابد من إعادة بنائكِ إذا أردتُ مجابهة الفجر القادم بدونك.

هل هذا ممكن ؟

هل أنتِ عائدة إليّ عبر ليل اللغة الكبير، ليلها الشاسع الذي لا ينيره سوى الموت ؟

أهبكِ هذه السهرة المرصَّعة بحمق مبدئها وحمق جميع المبادئ، أهبُكِ أرقاً باذخاً لا يعنيه حساب.

أهبكِ جسدي وشمسي وجوامعي وقلاعي وقبائلي المدفونة في أضرحة الشهوة والسلطة.

أهبكِ السيوف ودم الآلهة والخيام.

أمامي الآن، بجوار أصيص البابونج، رسالتكِ التي تلقيتُ عبرها خبر عودتكِ، رسالتكِ المضرجة بقطرات دمكِ. كأنكِ إذْ وقَّعتها بمائكِ العميق، استَبقْتِ ميثاق الدم الذي كان يراقبنا. كأنكِ إذْ أرسلتِها دون تأريخ، وضعتِ مشهداً بكامله خارج النهار، في الخلفية السرية التي تحكمه. كأنكِ قَبْلَ كتابتها قلتِ لِي: «إسْمَعْنِي بأُذُنٍ أُخرى، إنْتَقِلْ إلى حيث تكلمتُ».

كانت رسالتكِ دعوة غير مسبوقة، وموقظة لخيال وجه بعيد : «أنا ميزار يا مغران.. أنت لا تذكرني.. هل تذكرني ؟ أنا حَاضِنَتُكَ التي كنتَ تحفر وشم وجهها بأظافركَ الطفولية، وكنتَ تحل شَعْرِي بالليل.. أيها الطفل الوحشي، كم أدْميتني ! لقد عدتُ إلى الدار الكبيرة بقصبة النوار وليس لي سوى الليلة الآتية.. تعال لأراك».

بَدَتْ رسالتك مرفوقة بعبق قديم، بحناء برية ومزيج من الأعشاب القمرية الأُخرى، لكن وجهكِ بدا متعذرًا على الإمساك. أطللتُ على حافة جسدي، فرأيتكِ نائية، أسفل جذوري المظلمة. ولم أرَ وجهكِ.

سأقول لكِ إن الوجه طقس غياب لا هوادة فيه.

سأقول لكِ إنني نسيتُ وجهكِ لأنني لم أره كاملاً في السابق، لم أره كما كان ينبغي.

يحضرني عطرٌ مَّا، لونٌ يميل دائما للأخضر، لحنٌ فيه حنين غابوي، وتحضرني رُزنامَة الصور الأبدية : البئر، الناعورة، شجرة التين، سقيفة الدالية، الشمعة الخضراء، البهو السفلي، النبات الشهوي فوق أسوار الدروب، مآزر النساء.

تحضرني يدٌ رخوة وموشومة، يدكِ المنسية دون شك، تمسك بي وتعرفني على العالم بتواطؤ فرحان : هذه شمس، تلك خبيزى، ذلك نيلوفرماء، هذه فراشة ليل.

لكن تحضرني رائحة لَبنية لا تقاس، رائحة شاسعة لا يحدها سوى الليل، مزيج من اللعاب الأنثوي والعسل المحروق. رائحة اشتبكتْ في ذاكرتي بآثار

أخرى : خصلات شعر فاحم وطويل على الوسادة المطرزة، أثواب ساتان بيضاء وشفافة، وجسد مًا، هائل، ينحني ويغسل الزليج الأخضر.

تلك الرائحة شممتها في رسالتك، في قطرات دمكِ العابرة للزمن.

وضعتُ رسالتكِ بجوار أصيص البابونج، وخرجت. عبرتُ مقبرة ابن عربي عند الغسق، القبور ثملة بالأعشاب البرية وأزهار الصبار، وثمة ديدان حباحب تلمع تحت التعريشات القاتمة.

في عمق المقبرة، قرب ضريح لسان الدين بن الخطيب، داهمني إحساس مترف، إحساس مضرج برغبة مجهولة، فتوقفتُ عن السير وانْتَحَيْتُ قبراً متربباً بجوار الضريح وجلست.

أمامي، كانت طوبوغرافيا الموت جارفة : فضاء مترع بالجفون المغلقة في أرحام المرايا، فضاء مسكون بشهوةٍ ما لُمِسَتْ من قبل، عربدات عطور وأملاح.

كانت قبة الضريح مكسوة بالطحالب القمرية ولعاب فراشات الليل الضارية، والصمتُ يؤازر جدرانه. الصمت العميق الأبدي. صمتُ الموت السيد.

لقد أخبرتكِ بالمشهد الذي حدث بعد ذلك : فُتِحَ باب الضريح، وخرج لسان الدين من رماده. خرج مثلما يخرج ظل من مرآة، وكانت لحيته لاتزال كثة وخضراء. خرج وأشرف على فاس، واهبة القتل الذي هز الضيافة، ثم تمشى قليلاً حتى بلغ شجرة عسل بري، وتوقف قربها.

كان يوليني جانبا من وجهه، بينما اختفى الجانب الآخر في ضوء الغسق المعتم. بدا مثمولاً بمدار آخر، والهواء الشرقي يهز أكفانه إلى مستوى أعذاق العسل العالية ويخفضها. حين أحس بي، التفت ببطء وظل صامتاً. كانت عيناه المضرجتان بملح العشب الفوسفوري تلمعان بنظرة ما ورائية، نظرة صاعدة من أعماق الموت.

اعتقدتُ أنه لن يتكلم فإذا به يهتز بضحكة غريبة، ضحكة شاملة حتى أخذ يرتعش. قال تعال نشربْ شاياً في باب الضريح، فباب المحروق لا يزال كما عبرته.

أعددنا الشاي بنعناع المقابر، وجلـنا في العتبة المفضية إلى الـداخل. لاحت لي السـتائر الخضراء وشاهدة الرخام.

قال عبرته في فجر نائي، غب مطر خريفي، وأعراش اللبلاب خـاويـة. كـان في الذاكرة ليل عميق وجسد أندلسي، وكانت الـسلطة ليلاً آخر، تغادره في غرناطـة فيـدركـك في فـاس. لكنني مـا نسيت جسـدهـا الراقـد هنـاك، في سـقيفـة العليـق الأحمر، والقمر الإيبيري يغسله. ما نسيت وجهها في ليلة الوداع.. كأن ضيافة فاس كانت مسبوقة بوجه غير مسموع، كأن النهاية كانت منذ البدء محلومة. عبرتُ بـاب المحروق والتيجان رماد، وكان ماء الغبش يقطر من الأسوار. رأيتُ البخـار الألوفي مخضرا في الأزقة القاتمة، ورائحـة الأبـازير تسكن المنعطفـات. وفي دار الإقـامـة، وهي الدار التي لا تبعد عن دار ابن خلـدون سوى ببضع خطوات، كـانت الأغطيـة تتلطخ كل ليلة بالدم والحبر. كان الموت معي منذ البدء، على هيأة أندلس عميقة.

رشف لسان الدين من شايه وهَمَّ بالقيام، فسألته :

- ما الأندلس ؟
- عودة أبدية، قال.
- ما الـسلطة ؟
- رقصة مقبرية.
- ما المرأة ؟
- جزيرة ليلية.
- ما الحُبُّ ؟
- بَلَدٌ فرحان.
- ما الموت ؟
- هو والحُبُّ صنوان.

عندئذ نهضتُ. تركتُ لسان الـدين عـائـداً نحو شجرة العسل البري، وواصلتُ عبوري للمقبرة.

لقد زارتني آثاركِ المجهولة في تلك اللحظة وشَمَلَتْنِي بعطر لاَيُطاق، عطرِ خِلْتَهُ سيوقظ الموتى.

هبطتُ المنحدر المضاء بالمصابيح، ودخلتُ باب المَحْروق.

كانت هناك غابة الأَصوات، وتحتها لمعانات الخُضَر في بُؤَرِ الضوء الخافت : رخاوة الطماطم الدامية، ضجة الفلفل الأَخضر، إزهرار القنبيط المائي، أرق الباذنجان القاتم. كانت أضومات النعناع ترتخي في ممر الباب بصخب مرئي. ثم لاحتْ أعراش الخرشوف مضرجة بفتنة العرصات، وقربها باقات البقول والبقدونس بارتخائها الليلي.

رأيتُ نداءات الباعة تختلط بتراب الأسوار قبل أن تتناثر فوق أجساد النساء ووجوههن. سأحدثك عن وجوه النساء الملمات وهي تلعب خارج ليل اللثام، عن جمالها الميتافزيقي وهي تهب نفسها سافرة للضوء النهاري. أُحدّثكِ عن سيقانهن الوثنية خارج فتحات الجلابيب، سيقانهن المُوَقّعة لزمن آخر. فقد رأيت الملمات مشتعلات على امتداد الأسواق، رأيتهن محكومات بغواية قديمة وحركاتُهن نداء.

لما اقتربتُ من المقهى الذي بداخل الباب، دَعَتْنِي فتنة غريبة لارتياده، فدخلتُ وجلستُ على حصير الدوم.

فغمتْ أنفي رائحةُ الكِيفِ المحترق، رائحة نبتة القمر السهرانة في الجبال، فطلبتُ سَبْسِياً محشواً وشاياً بنعناع الحدائق.

كانت نكهة الشاي غرائبية، كأنها اختمرت في عرصة مجهولة، وكان الطريق إلى أعماق النبتة طريق انجرافات عشبية وانقلابات كوكبية.

رفعتُ بصري نحو سور قصبة النوار، فبدَا مُعَرِّشاً بدعوة لها شكل الخطر ذاته. دعوة مترنحة ومنهمرة بطيش من شجيرة تين مورقة بين أبراجه. دعوة مكونة بحماقة شاملة، كأن هذا السور يختطف العين ويلحقها بالمشاهد الألوفية الراقدة فيه.

عمـــائم الأوليـــاء
هبـــات الســـلاطين
مكـــــوس الأمراء
ثيران المـــــواسم
خيـول القبـــائـــل
مـــــواكب الحريم
نعـــــوش القتلى
مبـــاخر الأعيـــاد
أثـــواب الأضرحـــة
طبـول الـــزوايـــا
أغراس العرصـــات
قـــدور الـــولائم
عطـــور الخليـــلات
أقفـاص المسجـونين
مجـــــلمر الحمقى
ســلاســل العبيـــد
صمـــــوغ الشرق
تـــوابـــل الهنـــد
بنـــادق فرنســـا
معـــاصر الـزيـــوت
فتـــائـــل الشمـــوع
نحـــاس الفـوانيس
جلـــود النعـــال
أصـــواف الـــزرابي

لحـــوم الجـــزارين
رخـــام الفسقيـــات
أخشـــاب المنـــابر
جبص السقـــــوف
قرميـــد القبـــاب
زلّيـــــج الشرّاطين
سُماق الفقهـــــــاء
سكـاكين الـوطنيين
دفـــــوف السهرات
طيـور العشّـــابين
رمـــال العرّافـــات
قـوافـل الجيـــاع
أرمـــدة المحروقين
ألـواح القـــدمـــاء
صنـــاديـق العلمـــاء
خـــوابي الأعيـــان
ســـلاهيم الأئمـــة
أجـراس الـقـرّابين
دوريـــات الحراســة
خُطب عـــــلال
أعـلام الـــدراويش
ثـورات الكفـــاف

رشفتُ من شايي المُنعنع، وغادرتُ المقهى. كانت الدوالي مضاءة بالفوانيس، وعرش على امتداد الجذور نبات الحُرَّيْق الضاري.

في منعطف باب القصبة، أبصرتُ يداً أنثوية هائلة ترتفع خلف الصوامع والقباب مثل وردة ليل لا تُقاس، ترتفع وتُلَوِّح بأصابع مَمْهُورة بالملح، وفوقها يتناثر الضوء النجمي.

كانت المدينة أسفل اليد بيضة وحش مقدس مرمية بين الجبال، بيضة خرافية تزدحم فيها الأَجساد والأَساطير.

ثم بدأت اليد ترقص خلف المدينة، في الحد القصي الذي يشكل جهتها الأخرى، وأخذت رائحة الأَعشاب تنبعث.

شملتني حركة جارفة، حركة لم تكن في الحسبان، اندفاعة ذبائحية وفرحانة، فتابعتُ السير داخل القصبة بانخطاف بدائي.

أعرف الآن، في ليلة الغياب هذه، أن دارك الكبيرة قد اقتربتْ مني تلك الليلة بشكل غير مسموع، كأن الدار كانت قبل جغرافيتها بكثير، كأنها ابتدأتْ قبل موقعها بمسافة غير منظورة.

وجدتُ الباب مواربا، واللبلاب ينهمر فوقه بضجيج مقمر. رفعتُ بصري فتدفق عشب الأسوار بكثافة طرية الملمس، وزهره الليلي موقد مثل شموع نباتية الضوء.

عبرتُ عتبة بابكِ، فوجدتني في ممر طويل مضاء بفوانيس خضراء غُرِستْ على طول جانبيه، وفوقه سقيفة قصبية عرّشتْ عليها دالية قاتمة الأعراش.

كان نبات الحبق السهران يفصل بين الفوانيس، فبدت هذه الأَخيرة مثل ثمار مشعة الأَوراق، ثمار تطوف حولها فراشات الليل بحنين ذبائحي.

على جانبي الممر، في الأرض الممتدة إلى ما تحت الأسوار، بدت سهرة الأَعشاب معتمة، لا تنيرها سوى ديدان الحباحب وما تَـرَبَّ من سطوح الدار من الضوء القمري.

وقد سمعت هدير مياه لامرئية، فحسبته لأَحد الأَنهار السفلى التي لا تُسمع إلا بالليل.

واصلتُ السير بارتخاء غريب حتى هزَّني عطر أنثوي جارف، عطر غابوي الكيمياء، صحراوي الآثار، هزَّني وسربلني بلا هوادة، فألحقني بمجراه.

لم يكن عطراً، كان رجة دائرية تزوبع الدار والأعراش والمياه الخفية والعصافير السهرانة وزواحف الغيران.

أذكر الآن أن ذلك العطر هو الذي قادني عبر الممر، وهبط بي الأدراج التي في آخره، وأدخلني البهو السفلي حيث كنتِ تنتظرين.

يلزمني زمن آخر، ليس من هذا العالم، لأعيد كتابة مشهدكِ الجسدي كما داهمني في باب البهو، يلزمني حمق لا عودة منه لاسترداد ما لا يُرَدّ.

كان الإزار الأخضر طويلاً، وأنتِ تقفين داخله، واهبة لجسدكِ الهائل والرخو ما يكفيه من المكان، وساقاكِ مثل عمودين أشوريين يؤازران وقفتك الكثيفة وامتدادكِ الركين.

لحتِ لي، في ضوء الشموع المرصوصة خلفك، سيدة جليلة وخلاسية، سيدة فرعونية العينين، بابلية الوجه، بربرية الوشم والأرداف. لحتِ أنثى غابوية الشَّعر، كهفية النظرات.

اقتربتِ مني فاهتز صدركِ تحت الإزار، وارتجَّ ردفاكِ مثل برجيْن قديمين نسيهما الزمن.

اقتربتِ حتى صار وجهكِ أمام وجهي، فانهمر الوشم، وفاحت ذاكرة الحراقيص، فاح العشب الجبلي المضرج بالدم.

ما كان وجهكِ وجهاً، بل طقس قتل ونشور، بل قارة سكرانة ينتهي في تخومها كل يتم.

كان وجهكِ ليلاً بدائياً يسكنه ظِلُّ الماوراء والألم الشهواني، حدقتُ فيه بنظرة مكتملة أحسستُ بعدها بارتماءة قصوى، ارتماءة مهبولة في أفق تشكل شاسع وفرحان، ذراعاكِ تلقفا سقطتي وضمَّاني إلى هرَميْ صدركِ، ثم سحباني إلى وسط البهو حيث أجلساني على الحنبل البربري المحاط بالشموع.

جلستِ بجواري فعمَّقَ الضوء تضاريسك وظلالك، لاحتْ رخاوة لحمكِ غير البشري من فتحاتِ الإزار الجانبية.

قلتِ لِي :

- أنا فرحانة لأنكَ تذكَّرتَ ميزار.

قلتِ لِي :

- دمي سهران برؤيتكَ يامغران.

قلتُ لك :

- لا زالت آثار النسيان تربكني..

تساءلتِ مندهشة :

- نسيان ؟! لا، لم يكن هناكَ أبداً نسيان، بل غياب حتمي، وكنتَ معي في هذا الغياب. كُنَّا مرتبطيْن بعمق ما فرّقنا.

ثم أضفتِ، وأنتِ تقرِّبين خواناً صغيراً صُفَّتْ فوقه أقداح خشبية يتوسطها إبريق من شجر العرعر :

- النسيان مستحيل.

رفعتِ الإبريق وسكبتِ شراباً خاثراً قَرْفِيَ اللون، ثم قدمتِ لي القدح وأنتِ تقولين باسمة :

- هذا شراب البلح، أحضرته معي من الجنوب.

رشفتُ من القدح فلمعني مذاق حرّيف لم يسبق لي أن واجهتُ مثله، مذاق مؤلم إلى حدود فقدان اللسان.

لكن رأيتكِ تشربين قدحكِ دفعة واحدة.

قلتِ لِي :

- لابد أن تبدأ معي بشراب الصحراء هذا..

قلتِ لي، وأنتِ تأخذين القدح من يدي وتقربينه من فمي :

ـ لقد قطفتُ أعذاق البلح وحلبتُ الناقة المتوحشة وبحثتُ عن القرفة البرية سبع ليالٍ..

شَرَّبتِني القدم بالتدريج حتى الثمالة.

حين استرجعتِ يدكِ، كانت عروق الحمادات قد بلَّلتْني، وفي اللسان تجاوبتْ رمال وأساطير.

لسانٌ صار معبراً للقوافل المنسية دقات طبولها عميقة الرجع غرائبية الصدى تصعد خيام الوبر من الرحم الصحراوي تصعد النوق البيزان الوجوه الملثمة مياه الآبار توقد النيران في ليل الهوادج المرهقة بالحريم بين أفخاذهن يزهر عنف القبائل تتجمهر الألسنة تترنح السلالات دورة الدم مرفوعة من ليلة القضيب المختون إلى ليلة المهبل الممزق تنسكب الخمور تعبر الرمال ما لا يُعبر بين العمائم واللحي تحلم السيوف برقاد العشائر في ظلمة المفارخ تجثم النسور.

حولنا، كان البهو شاسعاً، وفوق أرضه المزلجة بالأخضر رُصّت المباخر النحاسية وبُثَّت الزرابي، بينما تدلت الخناجر وسجادات الدوم من جدار الحجر الصواني. على يمين الباب أصيص هائل لزهر البابونج وقربه خابية ماء مزخرفة بالقطران.

نظرتُ إليكِ فألفيتكِ تحدقين فيَّ بوجد أليم، كأنكِ تجابهين عناء مُمِضّاً من عناءات السلالة المزدحمة بيننا، أو تكابدين وعثاء الصعود من مملكة سفلى تشدكِ في خفاء.

قلتِ لي، وأنتِ تمدين لي قدحاً آخر وتأخذين مثله :

ـ مغران، عِدْني أن تفهم حمقي هذه الليلة، فأنا مزدحمة بك.

أمسكتُ أصابعكِ الممهورة بالضوء وضغطتُ عليها.

عندئذ تضوعت رائحة العنبر والجاوي المقدس.

قلتُ لكِ وأنا أمعن النظر في وجهكِ :

ـ أنا أيضا مزدحم بك ياميزار. فيما مضى ازدحمتُ بغيابك، وهذه الساعة بحضورك. لقد عبرتُ صحراء من الأجساد والوجوه والرؤى والأعشاب الوحشية، وها أنذا أغادرها إليك..

هتفتِ قائلة، وأنتِ تضعين قدحك في التجويف الذي بين فخذيكِ :

ـ لا ! لن تغادر تلك الصحراء أبداً، إنها أنت، وكل ما حدث كان ضرورياً لنا.

ثم أضفتِ، وأنتِ تنظرين إلى الشموع :

ـ لقد تركتك صغيرا وسافرت لأمنحك بذخ هذا العبور الصحراوي، عبور الآخرين والاهتزاز بكل الحماقات التي تشكل وجهك الراهن، فالفراق العالي وحده يشفي من القانون.

استدرتِ فجأة وحدقتِ فيَّ حتى ارتجف القدح في يدي وأظلمتْ عيناي.

أفهم الآن شساعة ذلك التحديق، ومدى استباقه للطقس الذبائحي الذي كان في رحم تلك الليلة، فبين واهبة الضيافة ومتلقيها وَعْدٌ عالٍ ومسبوق برؤياه.

قلتِ لي :

ـ قبل أن أتركك، كنا قد عشنا، أنا وأنت، سبعة أعوام في هذه الدار، بحيث تيقنتُ ليلة مغادرتك أن ميثاقاً لن يكف عن العودة قد تشكل بيننا.

قلتِ لي، وأنتِ تنهضين وتتمشين قليلاً، وإزارك مُرْهَق بجسدك :

ـ كنتُ قد استلمتكَ ملفوفاً في الأقمطة الأُولى، فأخذتكَ وأعطيتكَ صدري قبل أن يختمر حليبه.. كم آلمتني وكم أدميتني ! كان الهزيع الأخير من الليل يشرف دائماً على ذئبة نازفة الأثداء، وقربي طفل وحشي مضرج الفم والأصابع بحليبي الدامي.. كانت صرختكَ مرفوقة بعويلي، وكانا معاً من أرض أخرى غير هذه الأرض.. هناك أحسستُ أننا ارتبطنا، وأنه وحده عويل أكبر وأخطر يمكن أن يحمل لنا الفكاك.

اقتربتِ من غابة الشموع وجدّدتِ ما أوشك منها على الانطفاء، ثم رفعتِ بصركِ نحوي وواصلتِ المشي وأنت تقولين :

- في ذلك الزمن، كانت قصبة النوار مَعْبَراً يضج بالأجساد والدواب ليل نهار، فكنتُ أخرج بك لترى قوافل الملح الصاعدة من الصحراء، ومواكب العبيد تحمل خوابي السمن وزكائب الفحم وتهبط بها إلى القصور.. لازلتُ أرى الخناجر والعمائم والسروج وروث البغال والأباريق النحاسية وأعذاق التمر وقدور العسل البري والوجوه التي لفحتها الشمس تتفيأ ظل الأسوار وتشرب الشاي المنعنع.

توقفتِ عن المشي وقد التمع انخطاف وجهكِ بابتسامة مضيئة، وبعد أن نظرتِ إلى مدخل البهو الموصول بعتبة الدرج، تابعتِ كلامكِ :

- تعرف، أنت لا تذكر، هل تذكر ؟ في هذه الدار عريتكَ كثيراً وتعريت أمامك، وكم لعبنا ! كنت أموء خلفك مثل قطة هائلة، وفي الليل نخرج إلى الناعورة السهرانة خلف الدار ونجلس على حافتها، ثم نبدأ في التقاط بيض زواحف الماء حتى تخضر أيدينا بالطحالب اللزجة.. وعندما يلوح القمر، نرتمي فوق العشب المضرّج بلعاب السلاحف الكثيرة وقتذاك، وأحملك فوق ظهري وأجري على أربع مثل زاحفة ليلية مبهورة بالضوء.

عدتِ وجلستِ بجواري، ثم أخذتِ وجهي بين راحتيكِ وقلتِ لي :

- كل هذا ولم أكن قد سميتكَ بعد، الإسلام يترك الطفل بدون اسم سبعة أيام، وأنا تركتكَ سبعة أعوام لأنكَ كنت معي، بقربي، ولم أُسَمِّكَ إلا عندما حَمَّ الفراق. قلتُ لابد أن أضعكَ تحت علامة خاصة تنيركَ لي كلما عدتُ، والإسم هو تلك العلامة السرية التي تلمع في ليل واهبتها.

تأبطتِ ذراعي وأنهضتني، مضيتِ بي نحو باب خلفيٍّ في البهو لم أكن قد رأيته بعد، وفي عتبته المعتمة أوقفتني. تقدمتني داخل الردهة، وأوقدتِ فانوساً مدلى من السقف، ثم عدتِ إلي وتأبطتِ ذراعي من جديد وأدخلتني الردهة المضاءة.

كانت الردهة رحبة وطويلة، وفي آخرها باب مقوس تنهمر فوق نقوشه العنيفة أعراش لبلابة حمراء. من الجنبات تصاعد عطر شهواني ممزوج برائحة بخور شرقي، وفي الركن الأيمن فروة ثور بري يعلوها قوس وكنانة سهام.

توسطنا الردهة ورخاوة إبطك تهتز تحت ذراعي، صار الفانوس النحاسي خلفنا، فلاح ظِلاَّنا على الزليج الأخضر، والإنارة القاتمة تعمقهما.

قلتِ لي، مشيرة إلى الفروة المرتخية بزغبها الغامق :

- هذا هو الثور البري الذي ذبحتُ في ليلة إسمك، لأنني سميتك بالليل.. لازلتُ أذكر، كان الفصل شتاء، ومع ذلك قصصتُ لك شعرك عند حلاق قرب سوق الحناء، ثم اشتريتُ شموعاً كبيرة خضراء مضيتُ بها إلى مغارة قريبة من هذه الدار وغير مطروقة، مغارة لا يعرفها حتى الآن سواي، فهي إذن مغارتي، وهناك أوقدتُ منها سبع شموع رصصتها داخل تجويفات المغارة، في المواضع التي يلمع فيها العشب العميق، ثم رششتُ دم الثور ساخناً وهتفتُ بروح الأعماق : «يا روح الأعماق ! ليكن إسم الطفل بجوارك مغران.. لك الشمع ودم الثور والأسماء الذبائحية، لك دهشة النسوغ المظلمة...»

تابعنا السير نحو الباب المقوس حتى صرنا على كثب من اللبلابة الحمراء، عندئذ، قلتِ لي :

- وفي نفس الليلة كان ختانك، بعد عودتي من المغارة.. أذكر أن إبراهيم زارني في الليلة السابقة وقال لي : «لا تنسيْ علامتي».. وقد ذهبتُ بك إلى ضريح سيدي أحمد التيجاني وطرقت الباب على حارسه، فلما خرج حكيتُ له ورطتي فتكفل بالأمر.

نقلني كلامكِ إلى موطن الدم الأول، لمعان الجرح في عتمة الصحراء، حقل الزهور الأبيسية، إبراهيم يغرس شجرة الرمال، وأنا أشم دمي المنهمر في غيابكِ.. قرب النافورة ارتجف قضيبي وغاص في الماء، رأيتُ ظِلاً في الرخام.

تركتِ ذراعي وأمسكتِ بأعراش اللبلابة، وقبل أن تعبري الباب، التفتتِ نحوي وهتفتِ بمرح :

- هيا، اتبعني !

عبرتُ الباب خلفكِ فوجدتني في قاعة كبيرة ذات نوافذ دائرية تتدلى منها أوراق الياسمين وشب الليل. في الوسط، فوق زربية هائلة تصور بهجة بيرسيفون بهبوط تمّوز، مائدة مستديرة من الخشب المنقوش تحيط بها الطنافس والمخدات.

في الجهة اليسرى، خزانة خشبية متوسطة الطول، باباها من زجاج، وفوقها وُضعت سلال الخبز وأطباق اللحم بالسفرجل والسلاطة الخضراء والعنب ودوارق المياه.

توسطتِ القاعة فانهمر فوقكِ ضوء ثريا عالية.

قلتِ لي وأنتِ تهتزين بحركة فرحانة :

- الليلة ما تزال طويلة، لن نتعشى الآن.

قلتِ، وأنت تقتربين من الخزانة الخشبية وتفتحين بابها :

- فلنشرب نبيذاً..

أخرجتِ قناني حمراء وكؤوساً زجاجية، ملأتِ كأسين مضينا بهما وجلسنا فوق المخدات.

هب هواء ليلي مشبع بعبق الياسمين وشب الليل.

أمعنتُ النظر في الزربية فلاح شَعر بيرسيفون متطايراً إلى الوراء ووجهها منخطفاً نحو الأدراج التي بدا منها تمّوز مسربلاً بجراحه، قربها ربض الخنزير البري الذي كانت طَعْنَتُهُ جسراً للهبوط.

قلتِ لي، وأنتِ تغرزين أصابعك في شعر بيرسيفون :

- هذه الزربية أثيرة عندي، وأثير جداً هذا المشهد الأساسي.

- اشتريتِها ؟ سألتك.

- بل نسجتُها، أجبتِني.

- هنا ؟
- كلا، في الجنوب..
- شراب البلح أيضا من الجنوب، أَكُلُّ شيء عندكِ يتم في الجنوب ؟!
- نعم، أنا جنوبية.. ذاكرتي وجسدي جنوبيان، وكل ما أُعطيَ لي من هناك.
- ولكن كيف ؟!
- كيف أتيتُ إلى فاس ؟.
- نعم..
- كما تزور البجعة البرية بلد الشمال.. كان ذلك في فترة قديمة.. من مخانق تودره أخذني، كانت عمامته زرقاء ولحيته الصهباء تقرِّبه من ملمح ذئب البراري، تاجر ملح وهاوي مخطوطات كان.. أخذني في قافلته وصعد بي إلى حيث يبيع أملاحه ويثري مخطوطاته، فاس، وخيَّرني في الإقامة فاخترتُ هذه الدار، وصار يزورني كلما دخلت القافلة.. كان ذلك في فترة قديمة، ثم مات التاجر ذو اللحية الصهباء، فبقيتُ بمفردي هنا، وقرأتُ مخطوطاته فلم تشف غليلي، عندها سافرت كثيراً في إفريقيا وآسيا، وعند عودتي استلمتك..

نهضتِ واقتربتِ من إحدى النوافذ وصوبتِ بصركِ عبر الظلمة العشبية نحو البعيد، ثم واصلتِ الكلام :

- في السَّفَر عثرت على وجهي العميق، وأطللتُ على جسدي الآخر، أطللتُ على حقيقتي.. سافرتُ بالليل ورقدت بالنهار، فرأيتُ الأخاديد المضرجة بالسوسن والغابات المبهورة باللهب القديم، شربت الدم النيء مع قبائل الكونغو، حضرتُ طقس الملك الميت وحصانه اللاحق به في أعالي الطوغو، وفي إفريقيا الاستوائية تعلمت العرافة وأسرار الأفعى المقدسة، فكنت أدهن جسدي بالزيت وأدخل المعبد المبني بالطوب الأحمر حيث تنتصب الأفعى فوق الحجر الذبائحي وأرقد تحت نظرتها محلولة الشعر أمضغ أوراق المانيهوك ولا أبرح مكاني إلا

عندما تتلوى وتلدغ ذنبها علامة على العودة الأبدية والحياة المنخصبة بالموت، في مصر تعرفت على إيزيس مقيمة طقوس الحِداد في النيل الأعلى قرب مدفنها أقفاص الإوز الطائر وأوزيريس منثور الجسد حتى المنابع السفلى يحلم بأخته وحبيبته، لكن بعد البحر الأحمر تصاعد دخان آسيا فلمع قبر جلجامش في صدره أزهرت النبتة الهائلة زمجر ثور السماء وفرقعت سياط الآلهة فوق الخيول الأسطورية تجر عربات عشتار باحثة عن المنفذ لأبواب العالم السفلي لاستعادة تمّوز من ضيافة بيرسيفون الشتوية لكن طقس سيبيل هزني سيبيل راقدة في معبدها قربها ابنها وعشيقها آتيس يضفر شعرها وحولهما القمح والعسل والزيت في الخارج تسهر الصحاري..

عدتِ إلى الخزانة الخشبية وملأتِ كأسينا من جديد.

حين قدمتِ لي الكأسَ أمسكتُ بأصابعك الرخوة وأجلستكِ بجواري فانحسر الإزار عن ساقك.

كانت فوق لحمك قطرات وردية ومتلألئة لم أميز ليلتها إن كانت قطرات عرق أم قطرات نبيذ.

قلتِ لي وأنت تعيدين بصركِ نحو البعيد، بينما شعركِ يتموج بفعل الهواء :

- بعد مغادرتكَ عدت إلى تُودْرَه، قريتي الجنوبية، ومكثت بضعة شهور مع الساحرة العجوز التي ربتني ووشمتني، تصور، استقبلتني بنفس الوجه الغائب كأنني لم أفارقها عشرة أعوام، وحين حكيت لها ما حدث لم تصدقني، قالت إن كل ما يجري لنا محض تخيل وأن الأطياف هي التي تحكم الأرض، قالت إنها بقيت تراني في نفس الموضع قرب شجرة الدفلى، بنفس ضفيرة الشعر المجدولة بشرائط الدوم، وأنها حدثتني كثيراً.. قلت لها انظري إلى جسدي، إلى صدري، لم أكن هكذا، فقالت إن القمر يمكن أن يفعل في ليلة واحدة كل هذه الأفاعيل، وأنه لولاه لما اختمر الدم في جسد أُنثى، حسن قلت لها، وصوتي، ما

هكذا كان صوتي، فضحكت حتى ارتعشت وقالت إنها تسمع في أعماقي نفس العويل.. المهم، لم أمكث معها سوى بضعة شهور ثم أستيقظ فيَّ الحنين إلى السفر، استيقظ هذه المرة بشكل جارف، كأن أصولي تذكَّرتني بلا هوادة، فأبحرت نحو أمريكا اللاتينية، أبحرتُ على ظهر سفينة تجارية تنقل الزرابي والتمور ولحم الجمل، بعد أن قبلني ربَّانها كطباخة للرحلة.. كنت المرأة الوحيدة وسط إثني عشر بحاراً، ولك أن تتخيل العنف السري الذي هز السفر، فعزلة المحيط ورائحة الملح وعيون الأسماك المبهورة وليل الأغوار الممكونة بالسحر والشجر المائي، كل هذا كان كفيلاً بأن يُهَيِّج جسد كل واحد منهم، وبدأت لعبة الغواية الصغرى معي، بدأوا يغشَوْن المطبخ بسبب وبغير سبب، وأخذت الشهوة تهدج أصواتهم وتربك حركاتهم، فحسمتُ الأمر وحددتُ لكل واحد منهم يوماً يقضيه برفقتي في المطبخ، فيساعدني في تقشير البطاطس وتنظيف السمك، وحين ننتهي أرقد معه رقدةً لا يجرؤ بعدها على العودة إلي، رقدت معهم كلهم، وعند رسو السفينة على شاطئ غابة الأمازون توغلت في بلاد الهنود الحمر قبل أن يخربها اليانكي القادمون من الشمال، عبرت السّيرا مادري، جبال الأم، وصعدتُ رأساً إلى قبائل تاراهومارا حيث حضرت طقوس نبتة البيتول الهذيانية.. كانت النبتة تُقطف وفق تقويم قمري دقيق، ثم تُقَطَّر وتُشرب في حفل طقوسي باذخ، حفل تلتحق الأجساد خلاله بحمقها الشامل.. ثم تعرفتُ على أهرام الأزتيك الذبائحية في سهول الصُّبار ودم القرابين لا يزال لامِعاً في أدراجها العليا، الدم المسفوح من أجل الإله الشمس، ورأيتُ الطائر ـ الثعبان كتنزال كواتل يفقس بيضه الخرافي ثم ينساه في مفارخه الرهيبة.. بقيت مع قبائل تاراهومارا طويلاً فتعلمتُ السلطات اللانهائية للعشب والغابة والرائحة والجسد المثقل بالرموز والبدايات الكبرى..

تكاثرت القطرات الوردية فوق لحم ساقِكِ، كأنكِ كنتِ تمشين مع كلماتكِ، أو كأن خيالات ظل عديدة تتنقل فيكِ بدون هوادة.

وضعتِ كأسكِ فوق يد بيرسيفون، وأخذتِ تعبثين بشعركِ حيناً، ثم أمسكت بشجرة العرعر التي خلف تمّوز، وتابعتِ حديثكِ :

ـ تيقنتُ في الأخير بأنه سواء تعلق الأمر بقبائل تاراهومارا أو الأطلس أو الكونغو أو الحبشة أو ما بين النهرين، فإن اللحظة هي ذاتها، لكنها أخرى مخصبة لنفسها دَوْماً ومنهومة للآتي الذي يخصبها حُبّاً كان أو مَوْتاً، لحظة مكونة بلحظات متوازية ويانعة أحسها خصيبة في جسدي فينفجر الدم الأخضر فرحاناً بكثافة جذوره ولمعان ضوئه السهران يتدفق في صدري الحليب الأزرق فأشم عبق أعشابه تملأني رخاوته الخاثرة...

أخذتِ كأسكِ ونهضتِ، اقتربتِ من إحدى النوافذ وفتحتِها فانتبهتُ إلى أنها باب شرفة، باب يفضي إلى عرصة تراءت فسيحة ومضاءة الأغراس.

فجأة التفتتِ نحوي وقلتِ لي :

ـ مغران.. أحبكَ أبعد من اللبن الذي أرضعتك.

ثم عدتِ إلى وسط القاعة، وضعتِ الكأس الفارغة على المائدة، وقلتِ لي مشيرة إلى باب الشرفة :

ـ من هنا عرصتي.. أرى في عينيكَ أنها تدعوك.. قُمْ إذن، لا تهرب من مكان يدعوك، فكل مكان تكون فيه هو مكاني.. أُخرجْ وتجوَّلْ ريثما أدخل إلى دورة المياه، سنتعشى بعد عودتك..

مكتبة الأدب المغربي

عرصة مزار

مكتبة الأدب المغربي

أَتَسَقَّطُ الشّرر الدَّلِيلَ / بَنَاتُ نَعْشٍ
يرقدْن في زغب الظلام

أدونيس
«إسْماعيل»

مكتبة الأدب المغربي

عرستكِ، هِبَةٌ أُخرى من هِباتكِ الكبرى.

أفرغتُ ما تبقى من قنينة النبيذ في كأسي، وعبرت باب الشرفة. هبطت أدراج حجرية فوجدتني وسط صف من أشجار الجميز، خرجت منه إلى طريق معشوشب الجنبات ومضاء بنور خبازي اللون يتدفق من خلف تعريشات شب الليل المدلاة من جانبه الآخر.

في أحد منعطفات الطريق، عثرتُ على مقعد خشبي محاط بخميلة زهور حافرية، فجلستُ عليه ريثما رشفت من كأسي قليلاً ثم نهضت.

تابعتُ السير مفكراً فيكِ، في سفركِ الطويل وعودتكِ اللامعة في تلك الليلة، وقلتُ في نفسي إن الساحرة العجوز، ساحرة تودره، على حق، هناك نفس العويل منذ بدئكِ، وما طوافكِ سوى تنويع جغرافي داخله، قلتُ إنك متورطة في قارتكِ الخاصة، التي هي بلدكِ العميق، وموطن استشباحاتكِ التي لا تنام.

في آخر الطريق وجدتُ سبعة أدراج أُخرى فهبطتها.

كان أمامي نفق عُشْبي هائل تلوح في نهايته أضواء خافتة لشموع مرصوصة في العراء. خلف الشموع لاحت لي فسقيات مرفوعة كقباب مائية، وسمعتُ ضحكات عميقة كالنحيب.

دخلتُ النفق فزوبعني أريج النبات، أحسست برأسي يدور دورة مرصعة بنجم غريب.

لما خرجتُ من الجهة الأخرى ترنحتُ قبالة المشهد.

مشهد فسيح وزاخر، ساحة شاسعة مزلجة بالأخضر تحف بها أشجار بلوط ونخيل، بين كل شجرة وأخرى شمعة كبيرة حمراء موقدة، وخلف الأشجار لاح جبل مبهور بالثلوج وغابات الأرز. في الجهة اليمنى، لمعت بفعل ضوء الشموع أبراج معبد بُنِيَ وفق مخيلة المعابد السومرية وبجواره صومعة من الطوب الأحمر وقباب يتدفق منها الماء مثل نافورات مقلوبة، بينما اصطفت في الجهة الأُخرى عدة واجهات مضاءة بقناديل مغلقة في أبوابها الخشبية ومقهى شعبي مفروش بالحُصُر أزهر في بابه المقوس أصيص بابونج وأينع حوض نعناع.

كان يعبر الساحة موكب من النساء بمآزر خضراء، وفي أرجلهن المخضبة بالحناء شباشب بيضاء.

كن خلاسيات الوجوه، مشربات السيقان المنفلتة من المآزر بلون قمحي شهواني.

لما بلغن إلى وسط الساحة المزلجة تحلقن وجلسن.

ثم حللن شعورهن ورفعن أيديهن في حركة منسجمة وبطيئة وما لبثت أن صدرت عنهن الضحكات العميقة كالنحيب التي سبق أن سمعتها.

نظرتُ إلى الواجهات فلم أر أحداً بداخلها يمكن أن أستوضحه عما يحدث. مع ذلك اقتربت منها وسرت بمحاذاتها فرأيت عبرها أقنعة قديمة ودروعاً وحراباً وخيولاً مطهمة بالمهاميز والسروج ومباخر فضية وخياماً وبرية ونارجيلات محا زخارفها اللعاب وكوفيات محروقة بالشمس وسجادات علاها الغبار ومنجنيقات مسودة بالدخان ونعالاً وعباءات وأحزمة وعمائم وصولجانات وسيوفاً تجمد الدم في مقابضها.

تابعتُ سيري نحو المقهى وضحكات النساء المتحلقات تسربلني.

كان في المقهى شيخ ذو لحية خضراء، وقد تربع بين أصيص البابونج وحوض النعناع، ممسكاً سبسيه المحشو بيد وبالأُخرى كأس شاي.

لما رآني عبرتْ وجهه القديم، المنطفئ، ومضة خافتة، فقام وأجلسني، ثم دخل وعاد ببراد شاي منعنع وضعه بجواري. نظرتُ إليه مبتسماً، فحافظ على وجهه المنطفئ، وسكب لي كأساً، ثم جلس على مبعدة مني وهو يقول :

ـ لا شيء يحدث عبثاً، وما دمتَ قد وصلتَ إلى هنا فَلِكَيْ ترى وتسمع بنفسك.

فكرتُ فيكِ، تخيلتكِ خارجة من دورة المياه ومنتظرة إياي على العشاء، وكدتُ أتحدى الشيخ وأنهض عندما لمع في ذهني قولكِ : «لا تهربْ من مكان يدعوك، اعثرْ على جذركَ السري في كل مكان، وتذكرْ أن كل مكان تحضر فيه هو مكاني».

كان ذو اللحية الخضراء قد استأنف التدخين، فصرفت بصري عنه إلى الساحة المترنحة بالضحكات النسوية والشعور المتناثرة بين الزليج والشموع.

في الواجهات، ظلت القناديل تضيء بنورها الزيتي الأمتعةَ القديمةَ السهرانةَ، بينما تَوَاصَلَ تدفق المياه فوق القباب.

فجأة لعلعت زغرودة لا تقاس، زغرودة طويلة ورفيعة اهتزت لها جنبات الساحة من أعالي الشجر إلى أبراج المعبد، زغرودة حفرت أصلها في ذاتها فبدت عديمة الأصل، مرمية في ترنحها الملتاع والفرحان، ترنحها الدائري اللاَّيُمْسَكُ. نظرتُ إلى النساء فألفيتهن جميعاً شاخصات إلى العتمة التي خلف أشجار البلوط والنخيل، كأن الزغرودة هابطة من الجبل أو الغابة.

عندئذ وقفتِ النساء وقد علا وجوهَهُن انخطافٌ غريب، وأخذن في نزع شباشبهن ورفع المآزر إلى مستوى رُكَبهن، فعمَّد الضوء الكابي سيقانهن القمحية، ثم بدأن في الرقص منحنيات على الزليج، مرافقات إيقاع ضربات طبول لامرئية كانت قد أخذت تتصاعد.

رأيتهن مرتجفات، محمومات، مآزرهن مبقَّعة بالعرق عند مواضع الإبط، أردافهن مهتزة بالسهرة، وفي أثدائهن المتأرجحة يبكي الحليب الأزرق الخاثر.

كانت الزغرودة الرهيبة تجدِّد نفسها باستمرار، فأخذت الرعدة تسري في جسَدي وصرتُ أرتعش.

وما لبث أن ارتفع من جمع النساء الراقصات لحنٌ جارف، لحن حنينيٌّ لا هوادة فيه، أعقبه غناء :

عيَّطْنا لكْ فالزَّعترْ
تْجِي كاتْعْترْ

لم يكن غناء، بل زوبعة قوامها الرغبة والإفناء.

سمعت أصواتهن الرخيمة والنائية، أصواتهن الملتحقة بالغائب فيما وراء الصعتر، وكان الدمع يطفر إلى عيونهن ويبلل وجناتهن اللامعة.

نظرتُ إلى ذي اللحية الخضراء فوجدته شاخصاً إلى صومعة الطوب الأحمر، وفوق رأسه انعقدت سحابة من دخان الكيف.

أخذت البراد النحاسي الكبير، الجاثم بيننا، وملأتُ كأسي من جديد، ونهضت.

عبرتُ قرب دائرة الراقصات الباكيات، فلاحت لي دموعهن المتلألئة بين الشعور القاتمة وخضرة المآزر.

مضيتُ إلى آخر الساحة، فبدا لي بجوار المعبد، بين الصومعة وقباب الماء، درب صغير لم أره من قبل، درب لا ينيره سوى ما يترامى إليه من أضواء الشموع والقناديل، فعبرته وغناء النساء يلاحقني.

خرجتُ إلى متسع به أعمدة رومانية وفينيقية تعلوها أعشاش هائلة وتتدلى منها أجنحة لامعة الزغب الأحمر، بينما أزهرت فوق مرتفع مجاور شجرة زيتون ضاربة الجذور في التربة، أوراقها عميقة الاخضرار. غير بعيد، ارتفع فوق ذراع من حجر الصوان صحن مرمري كبير تتصاعد منه ألسنة لهب أزرق فعلمتُ أنه صحن العنقاء.

سِرْتُ بين الأعمدة حتى بلغتُ قوساً حجرياً متداعي الأركان أينعتْ قربه سِدْرةٌ وحشائش بريئة، فلاحت لي ذراع صهباء ومفتولة لرجل متكئ على الجهة

الأُخرى للقوس، خرجتُ أمامه وواجهته فألفيته يُوبَا الروماني وقد ذبل إكليل الغار فوق رأسه الملكي.

لما رفع رأسه وأبصرني هب واقفاً وسألني :

- أنتَ من هذه البلاد ؟.
- نعم، أجبته..
- لقد حكمتُها في زمن غابر..
- كلا، لم تحكمها أنت، موتاها هم الذين حكموها.
- لا أفهم، كنتُ سأقول لك إنني اعتبرتُها جَوَاباً منتهياً..
- وماذا علَّمكَ الموت ؟.
- أن هذه البلاد سؤال رهيب، سؤال متعدد وشامل.. أعترف أنني اكتشفتُ هذا متأخراً وإلا لكنتُ ربحتُ مَوْتاً آخر.

نهض وتقدمني، فظهر لحمه المحنط بالرقاد من ثقوب ردائه المعفر بالغبار الكلسي، بينما بدت أمامه أنقاضُ مَعْصرةِ زيتٍ سمعته يغمغم بأنه هو الذي دشنها في خريف سحيق، معصرة مكسوة بشعر رتيلاء وجلد ثعابين.

نظرتُ إليه، فبدا بعيداً عن الموت الآخر الذي أضاع.

تركته هائماً على وجهه وعدتُ عبر القوس إلى غابة الأعمدة، ثم هبطتُ أدراجاً رخامية فوجدتُني في مدخل دهليز رحب ومسقوف بالزجاج.

كان الدهليز مضاءً بمصابيح غازية علقت على امتداد سقفه الزجاجي. دخلته فترامى إلى سمعي صهيل خيول ووقع سنابك على ما يشبه الأسفلت. رفعتُ بصري إلى السقف، فرأيت شارع المدينة الرئيسي ممتداً بمحلاته ومقاهيه، وأشجار النارنج تحف جانبيه، رأيت الناس يرتفقون الموائد ونبات عيش الغراب ينمو قرب أرجلهم، وكان حبر الجرائد يلطخ الأيدي والعيون والجدران، رأيت أطفالاً عراة يقضمون ثمار النارنج المُرَّة تحت أشعة شمس شرسة ويركضون أمام الواجهات، رأيتُ

ملصقات كرة القدم تتناسل وتفرخ على الرصيف، والكتب تتفسخ بهدوء في الغبار، وفي العراء فقست بيضَها الزواحف.

تابعتُ سيري داخل الدهليز، ووقع سنابك الخيل يتصاعد. فغمتْ أنفي رائحة مسكٍ مرشوش بماء الورد.

لما خرجتُ واجهتني خيمة وبرية مضروبة في باحة رملية، وقبالتها شرفات قصر طيني أحمر تتسلقها جنبات من زهور الخلنج الصفراء. بين الخيمة والقصر ممشى من الأسفلت يعج بخيول شُدَّت أعنّتها إلى مربط خشبي طويل.

في الأعالي، احترقت شمس خضراء.

اقتربتُ من الخيمة فبدا لي حنبل دائري أحمر يتربع فوقه شاب أعمى وأمامه ألواح ودواة سُماق.

حين وقفتُ بالمدخل شَخَص إليَّ بعينيه المطفأتين، وهتف بي :

- من الزائر ؟.
- تائه مهبول، قلتُ له..
- مرحباً بالتائه المهبول، قال، وأشار لي بالجلوس، منذ حقبة لَمْ أرَ أَحَداً..
- وهؤلاء الذين أمامك ؟ سألته مُلَمّحاً إلى أصحاب الخيول..
- هؤلاء شيوخ القبائل جاؤوها لتجديد زعاماتهم القديمة..
- هي من ؟.
- سيدة القصر، مليكتي..
- تعرفها ؟.
- عرفتُها وانتهيت.. عرفتها من الداخل، لذلك لا أغبط هؤلاء العابرين قربها الآن، فهي لا تمنحهم سوى بذخ مظهرها، أنا عرفتها وعرفتني في غرفة نومها، تضاجعنا إلى حدود الألم، إلى حدود الهذيان، وكان شرطها الوحيد أن تحتفظ بغلالة ساتان سوداء على جسدها وألا أراها عارية أبداً..

مد الشاب الأعمى يده المعروقة إلى مخدة بَدا من ثنيتها ريش الدجاج البري، وضعها على ركبتيه المختفيتين داخل عباءة حرير غامقة الزرقة، ثم تابع قائلاً :

ـ لكن ذات مساء ارتدت ثوبها الملكي ذا التخاريم الذهبية وتعطرت بماء الورد ونزلت لاستقبال شيخ قبيلةٍ كان بينها وبينه ودٌّ قديم. أطللتُ عليهما من البهو العلوي، فرأيته يقدم لها بازاً غريب الشكل ويقول لها : «يا مولاتي، جلبت هذا الباز من أعلى صحاري حضرموت لأُهْدِيَهُ إليك..»، وكانت هي فرحانة. أحسستُ بغيرة ليست من هذه الأرض، فانتظرتُ حتى انصرف الشيخ، وخيم الليل، ثم عمدتُ إلى الباز في مجثمه فقتلته، واختفيتُ في حمَّامها إلى أن ظهرتْ عاريةً وبدأتْ تغتسل فخرجتُ لها. فوجِئَتْ حتى ارتعش جسدها، رمتني بنظرة رهيبة، نظرة هي التي تضيء عماي الراهن بنورها الخُرافي والشرس، لكنها لم تتمنَّعْ، بل رقدت معي رقدة لم أعهدها فيها من قبل، كأنها قررت أن تمنحني أعماقها القصية كرسالة حِدَاد ووداع، فعبرتُ إلى ما وراء أعشاب رحمها بعينيَّ المغمضتين، ومنذ تلك الليلة لم أفتحهما. لقد أطْفَأْتُهُما بأصابعها بعد رقدة الحمَّام تلك.

ـ كان من الممكن أن تقتلك، مثلما فعلتْ دِيَانَا مع أكتيون.. قلتُ له.

ـ لكنني مِتُّ حقاً، ردَّ عليَّ، مِتُّ فور بلوغي جهتها الأُخرى، ولستُ على فعلتي بنادم..

ـ وماذا تفعل هنا ؟.

ـ أجاورها، كما يجاور الميت المفتون وردة قبره.

ـ والألواح والسُّماق ؟.

ـ حاولتُ أن أخط كلماتٍ من داخل عماي، أنتَ نديمي هذا النهار، ولن أخفي عنك شيئاً، أنظر..

ناولني الألواح فأخذتُها وقرأت :

مدافن شهوانية

المعشوق هو الحي، أما العاشق فميت.
جلال الدّين الرُّومي

ثديٌ وينهمر المِلْحُ. برجٌ ويتدفقُ الدَّمُ.
فخذٌ ملكيٌّ
(قوسٌ بحريٌّ مفتوحٌ
على باقاتِ بهقٍ عميقْ)
فخذٌ يتهاوى
(سَارِيةٌ آشوريةٌ
يتسلَّقها خشخاشٌ لَيْلِيٌّ
نَقْشُهَا العالي حريقْ)
راقـــــدٌ في قرارتـــــكِ أنـــــا
فـــــوقي نظراتـــــكِ كـــــلّ
احتضـــــانـــــةٍ بـــوابـــــةٌ تفضي
إلى وهَـــــادِ تُمْبُكْتُـــو كـــــلّ
اختـــلاجـــــةٍ قمرٌ هـــــائِـــلْ
بطنٌ سِرِّيٌّ
(قفصٌ لحمَامةِ نارٍ مجوسيةٍ
منهومة للاحتراق الشاملْ)
أحرقيني في حَوْضِكِ
ثم أعيـــديني

(لقد انبهرتُ بالفراشاتِ السومريـة تتكـاثر وتطير من مهبلكِ أبراج الملح تصعد نحو رخاوة النهـدينِ والخيام محروقة في رحم القبائلْ)

ضُمِّيني إلى رَحِمِـــــــــكِ المُظْلِمِ
ضُمِّيني إلى رَحِمِـــكِ الـــــدَّاعِرِ
ضُمِّيني إلى رَحِمِـــــــــكِ الرَّؤومِ

(فالأولياء يموتون فيكِ كل ليلـةٍ عمـائمُهم مطرزة بمائكِ الأخضرِ تتهدم بصرختكِ القِبَابُ تُزْهِرُ نخلـة الله في الصحن العتيقْ)

بـــــازُ

حضرموت

طـلـيـقْ

ومرآة الرمـــل مضـــــاءة الـــزوايـــــا..
ماحَدَثَ لا ينتهي

تعرفين هذا وترقدين
مبهورة بِلَيْل المداراتِ
ما
حَدَثَ
لاَ
ينتهِي

(عُرْيـكِ أَبَـدَتْـهُ الصحـاري وَرَصَّعَتْـهُ الجبـال من فجـواتِ الكلس الرِّيفي إلى عروق الحمـــادات شبقكِ فَاضَ خارج قصركِ الطِّيني المُنْهارْ)

راقـــدٌ أنـــا مـــافـــات
لحمـــكِ الـوثني مـــدافني
كـــل شهقـــــة نــــافــورة
سفلى من النكتـــــــــــارْ
بلِّليني بلعابِكِ الملكي
بلِّلي رقدتي
(ثَـــوْرُ البيســـــون يرعى قرب
الـــزهرة الضـــاريـــة والـــذئب
الكنعـاني يمضـغ عشب الأَقمـارْ)
ما حدث لا ينتهي

ثديٌ
برجٌ
قوسٌ
مهبلٌ
بابٌ

أعدتُ إليه ألواحه وودعته.

غـادرتُ البـاحـة الرملية بخيمتها الوبرية وشـابّها الأعمى وقصرها الطيني الأحمر في بـابـه تهجع الخيول، وتـابعتُ السير على هَـدْيِ نفس الهـاجس الفرحـان الذي تملكني منذ زيارة عرصتكِ، هاجس موصول بوجهكِ وطائف حوله.

لقـد تخيلتـكِ مرة أُخرى منتظرة إيـاي على العشـاء، فقلتُ في نفْسي بـأنني على كثب منكِ وأن إطلالة أخرى على داركِ الخلفيـة لن تؤخرني.

مشيتُ في زقاق طويل أسلمتني إليه الباحة الرملية.

كـان الزقـاق يخترق أسواراً شـاهقـة محَـا الـزمنُ جيرهـا فكـمـتهـا الطحـالب وانفلتت من شقوقها نباتات معرشة وأعواد حلفاء من أعشاش الطيور.

على امتداد الزقاق رأيت أبواب منازل لا نهائية ومغلقة، كل باب يرمي البصر لباب آخر قبالته، كأنه انعكاسه المرآوي.

وحدها رائحة الطبخ كانت تتسرب من الأبواب وخصاص النوافذ ودوالي السطوح، رائحة أبازير وبهارات ممزوجة برائحة إناث تتضوع أجسادهن بشدةٍ في المطابخ.

وكان ماء السقايات يرسل ضجته المهراقة من حين لآخر.

ثم لاحت القبة الخضراء ببابها المُقوس وشذا النَّد والعود القماري يتناثر فوق صهريجها المجاور.

عبرتُ العتبة المُزلَّجَةَ ودخلت.

رائحة الدوم والسُّماق. ثريات مدلاة من سقف محفوف بالقرميد. فسقية رخام. عتبة باب آخر في أعلاه ساعة شمسية. سجادات باذخة. مسبحات مضيئة. مصاحف مذهبة. شمعدانات نحاسية مرهقة بالنقوش. مباخر فضية ذات زخارف مكسوة بالدخان. فضاء مثقل بعبق حريم لامرئي، عبق نساء يطفن كالسر بين أعمدة المرمر والبوابات المترنحة بالأرابسك. رائحة دماء أنثوية مسفوكة باستمرار ومعجونة بالجبص والرمل وحجر الصوان. دماء تُلمس في كل خطوة داخل القبة، ناضحة من قلب الخفاء بغرائبها المتحولة إلى بناء عنيف الأركان. دماء. صرخات شهوة مكتومة. إنزالات.

اقتربتُ من المحراب فبدت لي ملامح وجه الجالس فيه.

كانت سيماء العياء بادية عليه، لكنه كان وَسِيماً، بلحيته الخفيفة الشعر، وأنفه الشرقي، وعينيه اللوزيتين المثقلتين بالسهرة.

جلستُ على سجادة مترفة أمامه.

من العمامة الخضراء التي لف فيها شعره الغزير انفلتت خصلات مدهونة بالزيت المعطر بعود النوار. خلفه، في صحن المحراب، لمع ظل أخضر بفعل ضوء الآتي من الثريا البعيدة.

رفع الوسيم ذو العمامة الخضراء بصره إلى الأقواس المضرجة بالإنارة القاتمة، ثم قال وهو يداعب بسبابته شامة الأولياء التي في ظاهر يده :

- سهرة. نسيان. غبار رملي. ليل التفسخات. زهرة مهاوي. هذا ما آلت إليه المدينة التي أسَّسْتُ رافعاً شهوتي وموتي إلى مستوى حلمها. مدينة. حدثٌ جسديٌ قبل أن يكون معمارياً. حدث عاطفي، صوفي، تغيًّا ترصيعَ فتنة منذورة للغياب. حدثٌ كونيٌّ أيضاً، لأنه من أجل تأسيسها راجعتُ كل مدن الأرض واستشرتُ دورة الأفلاك. قلتُ لأمنح للقبائل رَحِماً آخر تتبادل داخله الدم والمني وفق قانون ضيافة جديد، ولأمنح لحريمي دُوراً جديرة بتثبيت شجرتي المهاجرة من الشرق. قلتُ لأمنح لوجه الأب اللامع في قبر زرهون امتداداً خارج ليلة القتل. قبائل. حريم. شجرة النسب. لكن المدينة، كالمرأة، جسدٌ لا يمكن التكهن بمآله. جسد غير مسبوق. أنا فرحان بحمقها ومُعَوِّلٌ عليه. لِيَنعقدْ في أزقتها الغبار الرملي. لِيتعمقْ ليلُ التفسخات في هيكلها. ولْتَتَوَلَّدْ من بؤر رمادها مدينة أُخرى تعرف كيف تستنبت الفطر المسموم في عشاء الذئاب. مدينة عارية تحقق شهوتي المعلقة..

أجال عينيه اللوزيتين في الشباك الحديدي الذي على يسارنا، شباك مثقل بالأقفال وشرائط القماش الملون، ثم أضاف :

- عندئذ يمكنني أن أموت حقاً، دون أن تُشَوِّشَ عليَّ مثل هذه الأقفال العقيمة..

نهضتُ.

عبرتُ صحن القُبَّة، وفي صهريجها المجاور غسلتُ وجهي وشربتُ.

عدتُ عبر الزقاق الطويل، المسكون بكيمياء التوابل وتضوعات الرغبة. حرَّك نسيم غربي أعراش الدوالي، فَنَدَّ عنها حفيف رخو تخللته انقصافات عميقة الوقع.

رفعتُ بصري إلى أعالي الأسوار فرأيتُ كلمات الوسيم ذي العمامة الخضراء تنهمر بهدوء فوق هجوع الحوانيت :

جسـد
لا يمكـن
التسـكهـن
بمـآلـه
فَرْحَـان
بحمقهـا
ومُعَـوِّلٌ
عليـه
مـدينـة
عـاريـة
تُحَقِّـقُ
شهـوتي
المعلقـة

عبرتُ في إيابي الباحة الرملية والخيمة وألواح الشاب الأعمى والقصر الطيني الأحمر والملكة الفاجرة وخيول القبائل والدهليز ذا السقف الزجاجي والمقاهي المتفسخة فوق عيش الغراب وثمار النارنج المرة وغابة الأعمدة الرومانية والملك المعفر بالغبار الكلي والدرب القاتم والساحة المزلجة بالأخضر وقباب الماء وذا اللحية الخضراء وموكب الراقصات المغنيات الباكيات والنفق العشبي فالأدراج السبعة الصاعدة إلى عرصتكِ ودارِكِ.

مكتبة الأدب المغربي

عشـــاء ميـــزار

مكتبة الأدب المغربي

بـدون الليلـة البيضـاء للحب والشهـوة، وبـدون تجربـة الزمن المنقرض، هل تكون هناك قط حكاية أو كتابة أو عناق شهوة ؟ هل يكون هناك فكر جدير بليلتـه الكبيرة وبالموت الذي يتأملها ؟

عبد الكبير الخطيبي
«عن ألف ليلة والليلة الثالثة»

مكتبة الأدب المغربي

جُسْتُ قرب تعريشات الياسمين وشب الليل، وعدتُ إلى قاعتكِ الكبيرة.

وجدتك قد استبدلتِ إزاركِ الأخضر بغلالة ساتان بيضاء وشفافة، ومنهمكة في وضع الأطباق على المائدة.

بدتْ قارة جسدكِ رخوة التقاطيع، عميقة المناطق الظليلة، غرائبية الذرى والمنحدرات. أسفلكِ، ظلَّتْ بيرسيفون مشمولة بنفس الانخطاف المتوله نحو الزائر الكبير.

التفتتِ نحوي باسمة فهزَّني في وجهك ضوء طارئ وغريب، ضوء متراءٍ خلف قناع البشرة الشفاف، كأن موقداً وثنياً بعيداً يمده بأواره العميق.

وكان الوشم يلمع مثل نقش طقوسي مبهور بجذوره.

وضعتِ سلة الخبز القمحي على المائدة، واقتربت مني. أخذتني بين ذراعيكِ بقوة حتى ارتجف الهَرَمان في صدركِ، ثم مضيتِ بي إلى المائدة سائلة إياي بصوت مغناج :

- لماذا تحدّق فيَّ هكذا ؟! آه، قل لي لماذا ؟!
- لأنكِ رهيبة الجَمال، قلتُ لكِ شاخصاً إلى وجهك.
- إلى هذا الحد ! رددتِ بنفس الصوت المغناج.

أعرف أنكِ سمعتِ كثيراً عن جمالكِ من كل الذين..

هززتِني بشدة مقاطعةً إياي وهتفتِ بي :

- لا يهمني الآن ما قاله لي آخرون، فهم هاجعون الساعة في إقليم النسيان من جسدي، بل يهمني ما أسمعه منكَ أنتَ بالذات..

جلسنا إلى المائدةِ متجاورين، التصقت الساق بالساق. أصبنا من اللحم والسفرجل، وأنا أرقب وجهكِ المضاء خفية. كان شعركِ مزدحماً على كتفيكِ، وقد نفرت خصلات طويلة وانهمرت ما بين هَرَمي صدرك. أحسستُ أنكِ تأكلين لا لتعيشي، بل لِتُغَذِّي أعجوبة أخرى غير حياتكِ. ناولتِني السفرجل قائلة :

- هذا سفرجل العرصة، قطفتُه بنفسي هذا المساء. لو رأيتَني متوغلة في الدغل بسلة القصب في يد وبالأُخرى أزيح العساليج والخبيزى من طريقي، لما ميزتني عن قاطفات المواسم. عند عودتي، وبينما أنا أعبر حوض النَّعناع، عثرت في شجرة التوت البري التي في وسطه على ببغاء فَقَدَ ذَاكِرَته..

- هل أحضرتِه ؟

- كلا ! تركته في مكانه.. قد تعود إليه ذاكرته بين لحظة وأخرى، لكنني أحضرت نعناعاً طرياً سأعد به الشاي بعد العشاء.

عشاء. ماذا أكلنا تلك الليلة غير علاماتكِ المتبلة بالبقدنوس والزعفران. عشاء. فواتح جسدكِ الموهوب في السر، فواتح العالَم. تجاور اللحم الذبيح والعشب والماء، تجاور العنب الديونيزوسي والقمح البابلي. لقد أكلتُ وجهكِ في كل لقمة، وتبلغتُ بمائكِ السري. عشاء. آداب أكل مهبولة بالفرح والتواطؤ، آداب لا تراقبها لياقة. تَحَوُّلُ الطعام إلى لعب طائش وحميم، فتتنقل حبة العنب بين فم ورديفه، راسمة داخل كثافة اللحظة قوساً من الانتشاء والتهور. عشاء. لكن العشاء كان قد تم قبل وقوعه، ولم تكن تلك الجلسة سوى استمراره.

قلتِ لي، وأنتِ تأخذين عنقود عنب أسود :

- سأضع حبة عنب في فمي.. وسيكون عليك إخراجها بلسانكَ قبل أن أبتلعها.. هذه لعبة كنا نقوم بها معاً قبل أن نفترق، لكن كنت أنتَ الذي تضع حبة العنب في فمكَ وأنا أخرجها، هذه الليلة نعكس الدور، إستعد..

قرَّبتِ العنقود من فمكِ، وبسرعة التهمتِ حبةً، أمسكتُ وجهكِ بين راحتيَّ، جذبتُكِ نحوي، ثم وضعتُ فمي بين شفتيكِ، أدخلتُ لساني، كان الظلام والريق المكر، مدفن البلل المُعطَّر، لفحتني حرارة رخوة ومشطورة بأنفاسكِ الرطبة، والتقى اللسانان تَخَثَّرَ اللعابُ أطلاً على شفير هاوية الحنجرة ليس يعنيهما سوى تعميق ترنحهما، لمستُ الثمرة، كابدتُ بابتهاج حتى أخرجتها وفي لساني آثار من فضائكِ المائي الثمل.

ضحكنا حتى ارتجفتِ المائدة. أحستُ بأصابع قدمكِ تضغط على أصابع قدمي، وكانت يدكِ تربت على صدركِ المهتز من شدة الضحك.

قلتِ لي ضاحكة، وأنتِ تأخذين حبة عنب أخرى بين سبابتك وإبهامكِ :

ـ هذه الحبة مصيرها صعب، سأدحرجها بين ثديَيّ، وعليك أن تبحث عنها وتخرجها بلسانك.. هيا !

غابت الحبة بين الهَرَمَيْن. نزلتُ تحت غلالة الساتان، وطرقت وادي الملوك. بشرةٌ معجونة بلعاب الطيور الفرعونية، بشرة قنادس الأنهار المقدسة. مددتُ لساني، شققتُ طريقاً بين الهَرَمَيْن المتقابلين، وكان الدم والحليب يتخثران في الخوابي المأتمية المدفونة في كل هَرَم. بحثتُ عن الثمرة المرمية بَحْثَ الأعمى، فسمعتُ التدفقات اللبنية تهدر داخلكِ مثل شلالات نياكَارا، سمعتُ الأَعياد الدموية صادحة بغنائها الذبائحي، وتراءى لي أخناتون شرق الهَرَم العالي فاقتربت، مَدَّ لِي حبة العنب وهو يقول بأنه عثر عليها في كتاب الموتى، أخذتُها منه وصعدت.

قدمتُ لكِ الثمرة على لساني فالتهمْتِها مرتجة من الضحكِ، واحتفظتِ بفمي بين شفتيكِ المذهلتين.

لم تكن قُبلة. كانت افتتاحاً لسَفَرٍ لايؤازره فكر.

نهضتِ مترنحة وأنتِ تقولين :

ـ سأعد الشاي..

تَبِعْتُكِ. أمسكتُ بذراعكِ ومشينا بتثاقل كثيف.

حين بلغنا الردهة الجانبية المفضية إلى المطبخ، أحطتكِ بذراعي واحتضنتُكِ بقوة. شخصتِ إليَّ بنظرتكِ التي ليست من هذا العالَم، وهتفتِ بي :

- مغران ! ماذا يحدث لنا ؟! لم أحس بهذه الرعدة من قبل..
- ميزار !
- ولا بهذا الفناء الكبير..
- ميزار !
- لنمض من هنا، لا حاجة بنا إلى الشاي، الرحمة لنا !

سِرْنا مترنِّحَيْن إلى آخر الردهة، ثم عبرنا عتبة باب مقوس عرّش بجواره أصيص زنابق سوداء، فواجَهَنا فراش أخضر اللحاف والمخدات انتصب على جانبيه شمعدانان على هيأة ثعبانين يحمل كل منهما صحن زيت مقدس هو مزيج من عرق عشتار الأحمر ودموع إيروس الزرقاء.

كان الفراش في الوسط المتوازن لغرفة تشرف على العرصة بنوافذ مقوسة ومفتوحة، يعلوها سقف رصعته خيالات ظل خنثوية تفترش أعشاباً سرمقية هائلة وخلفها يلمع لهب عيون شهوانية متناسخة، سقف العالَم.

شددتِني إليكِ قائلة بصوت ازداد رجعه الكهفي :

- كنتُ أعرف أن ما حدث في السابق لابد أن يحدث مرة أُخرى.. أعطيتكَ صدري صغيراً وأُعطيك إياه هذه الليلة كبيراً.. لكنني أعطيكَ آخر ما تبقَّى فيَّ : ومضة حمقي الأَخير.. ما حدث قديماً يحدث بوجه آخر، دائرة العودة تكتمل، وهي أيضاً دائرة الفراق، سأموت قبل طلوع الفجر، أخبرتني بهذا عرَّافة الجنوب التي لا تخطئ، سينتهي عويلي بعد ساعتين..

- لا شيء ينتهي يا ميزار.. تعرفين هذا.

- أعرف.. لقد وَرَّطتكَ فِيَّ بهذه العودة التي لم تكن لكَ في بال، وَوَرَّطتكَ من جديد في وجهي.. لستُ نادمةً، بالعكس ! أنا فرحانة.. لأَنني أعرف مدى ما يربطنا في عمق الفراق نفسه، الفراق هو الذي ربَّانا.. كنا، أنا وأنت، من

أرض أخرى غير هذه الأرض، لذلك خصصتُكَ بليلتي الأخيرة، أحببتُ أن يكون نزيفي قربك.. إنزع غلالتي، عَرِّني، وأنمني على الفراش مثل جَرّة طينية ستحتويك.. قل لي الكلمات الفاحشة التي ستصير قبري، فبيرسيفون تحترق في أعماق الجحيم.

نزعتُ غلالتكِ وأنمتكِ. كنتِ ترتجفين.

تعرّيتُ ورقدتُ بجوارِكِ.

بدا لحمكِ غير البشري بكل جغرافيا حمقه.

بدا مضاءً بنور قاتم ومتناثر عبر ذراه وأخاديده. نور الملح اللامع في ليل الجسد المردود لقانونه الخاص. قانون الشهوة والدم البعيد.

قبل أن أهبط، حسير البصر، حدّقت في وجهك الهاجع داخل شريعته. وجهكِ : مدخل بلدكِ الكبير. مدخل عالَمِكِ السهران. مدخله. دربه الأخضر. مذبحه الافتتاحي. برجه المرصع بالوشم. ضريحه القمري. حَدَّقتُ فيه وقبّلتُ عتبته المباركة. الجبين عتبة مغسولة بالظلام. الجبين ردهة كوكبية ينهمر فوقها شعركِ : غابة العالَم. شَعركِ غابة مدارية كثيفة المنابت، غابة بنغالية تفقد فيها الوحوش ذاكراتها، وفي أعماق الغابة أُذناك : مَعْبَران للضجَّة المجهولة. الأُذنان جسران إغريقيان تعبرهما أغنية أورفيوس. الحاجبان قوسان بابليان، قوسان عشبيان أسفل ردهة الجبين. العينان بِرْكتان رومانيتان لاغتسال العنقاء، عيناكِ بِرْكتان بربريتان لطقس الحراقيص. أنفك شاهدة قبر إسلامي. شفتاك خاتم لمدفن البلل النكتاري.

ميزار..

أيتها الأم الداعرة.

أيتها الأم المؤلمة.

جِيدُكِ المجوسي مرَصَّع بحبل من مسد، وأنت تضحكين بفجوركِ الرؤوم. تضحكين في ليل الزبانية ضحكة القرابين الشامخة. تضحكين فتتهدم المدينة وتسقط حجراً على حجر.

سمعتكِ تضحكين بشموخ، وأنا أهبط عبر جسدكِ الأفعواني. ثم توقفتِ عن الضحكِ لحظة قلتِ لي خلالها بصوتكِ الكهفي :

- مغران ! يا ولداه ! إذا قُضي الأمر اتركني مجاة في إزاري الأخضر واذهب حيث ترسلك ليلتي.. ستأتي العرافة وتحملني في هودج إلى مدفني الجنوبي..

طفرت الدموع إلى عينيّ، فاعتصرتُ لحمكِ الرهيب وهتفتُ ووجهي مدفون في شعركِ المُخَبَّل :

- لن أراكِ إذن مرة أُخرى !

- يا مغران.. لن تكون في حاجة لأنْ تراني، فقد وهبتكَ كل شيء : لبني، غيابي، والآن أهبكَ جسدي وموتي. إنني أترك توقيعي الهذياني في فكرك وجسدك، فاعتبرني ممراً إلى شيء آخر يشملني ويتعداني، شيء أبعد مني وأخطر.. نحو ذلك الشيء الآخر أرسلك، ولتكن حركتك من حركته.. وتَذَكَّرْ أن ميزار وهبتكَ حُبّاً ليس من هذا العالم، وأنها لذلك تستحق النسيان الكبير..

- أنتِ علّمتِني أن النسيان مستحيل..

- كنتُ أقصد النسيان الصغير الذي يتوهم الشفاء المطلق من وجه ما، من ذكرى ما، وهذا هو المستحيل.. أما النسيان الكبير فهو الاحتضان البعيد والعميق لذلك الوجه أو لتلك الذكرى.. احتضانٌ يقطن خلفية الجسد والخيال مثل لحن سري غير معهود، مثل أغنية متنائية على الدوام ومع ذلك تُعَطِّرُ حاملها..

ميزار..

أيتها السهرانة في ليلة موتها..

كانت عيناكِ السوداوان دامعتين من شدة الرغبة.

ثم أخذتِ ترتخين بهدوء وتترنحين. ترتخين وتمدين ذراعيكِ بحركة غريبة جوهرها الدفع والجذب. كأنكِ تبعدينني بقسوة عميقة تنقلبُ توّاً إلى احتضان بهجته مؤلمة. صرخات مكتومة. احتدامات. بين ثدييك الهَرَمِيَيْن سقط نجم الشهوة

في وادي الملوك، أينعت زهرة القمر. احتدامات. بين ثدييكِ صعدت ضجة الطبول الصحراوية لترافق إيقاع شبقكِ المحموم.

ميزار..

ياردفاً معجوناً بالزبد المجهول. بطنكِ السِّرِّي فِنـاء تتجمهر فيـه دمـاء التيوس الذبائحية. فِنـاءٌ عميق تحترق في أرجـائـه الطواطم القـديمـة. بطن. فنـاءٌ. محرابٌ محفوف بحدائق سميراميس المعلقة.

وِهَـادكِ مُـدَوِّخـةٌ يـاميـزار. وِهَـاد. أخـاديـد نينيف محروسـة بـالعظـايــات الأسطورية. وِهَاد. تضوعات اللحم المبهور بمهاويه المرشوشة بالحناء.

استقبليني في وهَادكِ.
جلجامش يرقد أخيراً،
ونبتته تُغَطّيه..

بين فخـذيـكِ المبـاركيْن حلَّـق العصفـور
السومريّ الهائل. العصفور الأسود.
عصفور الموت.

في البوابة السُّفلى
(بوابة عشتار المقوسة)
تهاوى العمود البابلي وغاص في
السيل العارم.
عويل
الأُمهـــات المـــدفـونـــات
في أعلى الصحـــــــــــاري
الأبيسيـــة يعبرن اللحظـــة
عـــاريـات ســوالفهن مخبَّلـة

لا
تصرخي
الليلة تكملين الأُولى
في مهبلكِ البربري
تلمع وردّة دمك
(وردة الدم. عوليس أعمى)
أورفيوس خلف المرآة
ريح الأَعماق

ميزار..
تلقَّفي سقطتي في حوضكِ..
تلقَّفِيني.

باب الرحم مضاء
(ماذا كان ضَوْءهُ غير الموت المشرف عليه)
باب الرّحِم
عنقاء رضوى في السقف. علامة العودة.
حذاء أمبادو قليس في البركان. علامة الهبوط.
الهودج قرب شجرة الخروب. علامة الرحيل
باب
الرّحم
شرقي
وجنوبي
وبحري
(باب الشرق سماءْ. باب الجنوب دماءْ)

ميزار.
في رعشتكِ الأَخيرة، انفتحتْ عيناكِ على سعتهما، مددتِ ذراعيكِ وطوَّقتِني بقوة ما ورائية هاتفة من أعماق رقدتِكِ :

- كُنْ حيث أرسلتكَ. الوداع !

قبَّلتُـكِ وأنـا أنتحب من الحـزن واللـذة. كنتِ قـد وضعتِ رِجْـلاً في السهرة الأُخرى، فغـابتْ عينـاكِ، وأخَـذَتْ منـاطقـكِ المتوترة ترتخي وتهـدأ. قبَّلتـكِ قُبلـة حمقاء، فاختلجتِ اختلاجة كبرى ثم تهاويت في عمق ليلتكِ.

نهضتُ وسجَّيتُـكِ في إزاركِ الأخضر. كـان نـور الغبش القـاتم يتنـاثر فـوق العرصة ويجوس عبر النوافذ المقوسة.

خرجتُ إلى الردهة وعرجتُ على المطبخ. رأيتُ أضمومة النعناع التي جلبتِ في المساء الفائت مرتخية في ضوء الفجر. هزَّتني شهوة حِـدَادِيَـةٌ، فـأوقـدتُ الفرن، وأعددت الشاي بنعناعـكِ المتضوع بعطر موتـك. شـاي نهـار قـادم بـدونـك، شربتـه مرتجفاً وغادرتُ دارك : الـدرب مسقوف بـالقصب الشمـي، رائحـة الفطـائر المقليـة في الزيت، رائحة الأسوار المرشوشة بملح الليلة المنقرضة : لن تعودي يا ميزار.

فاس : غشت 85 ـ مارس 86

دار توبقال للنشر
بمستواها العربي
تختارُ لك كتباً أنت بحاجةٍ إليها

صـدر

□ **سلسلة : المعرفة الأدبية**

- ● جيرار جنيت
- ○ مدخل لجامع النّص (طبعة ثانية)
- ● رولان بارط
- ○ درس السيميولوجيا (طبعة ثانية)
- ● ميخائيل باختين
- ○ شعرية دوستويفسكي
- ● عبد اللطيف اللعبي
- ○ حرقة الأسئلة
- ● يُمنى العيد
- ○ في القول الشِّعري

يصـدر

- ● تزفيطان طودوروف
- ○ الشِّعرية
- ● رولان بارط
- ○ لذة النّص

توزيع **سوشبريس**

توبقال للنشر

العربي دار

يمحتواها

تختارُ لك كتباً أنت بحاجةٍ إليها

صدر

□ **سلسلة : نصوص أدبية**

(شعر)● محمد بنيس

○ مواسم الشرق

● شوقي عبد الأمير

○ حديث النهر (شعر)

● سيف الرحبي

○ رأس المسافر (شعر)

● عبد الكبير الخطيبي

○ المناضل الطبقي على الطريقة التاوية (شعر)

● محمود درويش

○ وردٌ أقلُّ (شعر)

● محمد الخمار الكنوني

○ رماد هسبريس (شعر)

يصدر

● إدمون عمران المليح

○ آيلان (رواية)

□ **سلسلة : ذاكرة الحاضر**

● محمود درويش

○ ذاكرة النسيان

توزيع سوشبريس

قبل أن أهبط، حسير البصر، حدقت في وجهك الهاجع داخل شريعته. وجهكِ : مدخل بلدكِ الكبير. مدخل عالَمكِ السهران. مدخله. دربه الأخضر. مذبحه الافتتاحي. برجه المرصع بالوشم. ضريحه القمري. حَدَّقتُ فيه وقبَّلتُ عتبته المباركة. الجبين عتبة مغسولة بالظلام. الجبين ردهة كوكبية ينهمر فوقها شعركِ : غابة العالَم. شَعركِ غابة مدارية كثيفة المنابت، غابة بنغالية تفقد فيها الوحوش ذاكرتها، وفي أعماق الغابة أُذناك : معْبَران للضجَّة المجهولة. الأُذنان جسران إغريقيان تعبرهما أُغنية أورفيوس. الحاجبان قوسان بابليان، قوسان عشبيان أسفل ردهة الجبين. العينان بِرْكتان رومانيتان لاغتسال العنقاء، عيناكِ بِرْكتان بربريتان لطقس الحراقيص. أنفك شاهدة قبر إسلامي. شفتاك خاتم لمدفن البلل النكتاري.

ميزار..

أيتها الأُم الداعرة.

أيتها الأُم المؤلمة.

جيدُكِ المجوسي مرَصَّع بحبل من مسد، وأنت تضحكين بفجوركِ الرؤوم. تضحكين في ليل الزبانية ضحكة القرابين الشامخة. تضحكين فتتهدم المدينة وتسقط حجراً على حجر.